الحرية في القرآن الكريم

٣

الأستاذ محمد البعلبكي
نقيب الصحافة اللبنانية

الحقيقة السادسة: هي أن الحرية لا تتجزأ، فهي لجميع الخلق على السواء، دون تمييز أو تفريق. ليست هي أرستقراطية ولا هي غير أرستقرطية. ليست حكراً للأغنياء ولا لذوي السلطان ولا لفئة دون فئة. لا طبقية ولا تصنيف بين الناس في الحرية، بل مساواة كاملة في هذا الحق الأساسي من حقوق الإنسان. ولا ينتقص من هذا الحق أن يكون ممارسوه من المستضعفين أو من الأرذلين، أي من الطبقات الدنيا في المجتمع، من غير الأرستقراطيين المترفين. ولا يحط من قدره أن يمارسه هؤلاء أو أولئك. فعندما قال قوم نوح له: «أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟» أجابهم: **﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلا نذير مبين﴾**[(١)] ومثلها في سورة هود: **﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجري إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون. . . ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً، الله أعلم بما في أنفسهم، إني إذاً لمن الظالمين﴾**[(٢)]

الحقيقة السابعة: هي أن ممارسة حرية الفكر ليس لها من سبيل إلا الحوار العقلي بين الناس. ولقد علم الله الخالق نفسه الناس كيف يكون الحوار بينه وبين مخلوقاته ومنذ الأزل، على الرغم من أنه في غنى عن ذلك، ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة. وقد سبقت الإشارة إلى حواره

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١١٢ ـ ١١٥

(٢) سورة هود، الآيات: ٢٧ ـ ٣١

سبحانه مع الملائكة ومع الشيطان ذاته. وحاور إبراهيم ربه بلوغاً لليقين فقبل منه الحوار وآتاه سؤله: ﴿**وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي. قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾[٣] وحاور بنو إسرائيل ربهم عبر موسى في أمر ذبح البقرة فقبل منهم الحوار. ودعوات الرسل كلها محكومة بالحوار مع أقوامهم. ولا تخرج عن ذلك دعوة محمد بن عبد الله (ص) بل لعلها التتويج الأمثل لهذا المبدأ الذي لا مفر منه.

ولم يشجب القرآن في هذا الباب موقفاً كما شجب موقف رفض الحوار والإصرار على عدم ممارسته: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم، وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا، أولئك لهم عذاب مهين**﴾[٤] ﴿**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾[٥]. ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً. أولئك لهم عذاب مهين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم**﴾[٦].

الحقيقة الثامنة: هي أن للحوار أصوله وعدته وآدابه. فمن أهم أصول الحوار أن يكون حواراً مفتوحاً لا عقدة فيه ولا شروط مسبقة ولا إلتزام أفكار جامدة لا تقبل المناقشة مهما كان إيمان المرء بهذه الأفكار ويقينه بأنها هي الصواب دون سواها. وفي ذلك من احترام حق الآخر في الرأي المخالف مرتبة لا تدانيها أعلى مراتب هذا المعنى في تاريخ البشرية. وهذا الحوار المفتوح لا بد من أن يستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فها هو القرآن يدعو إلى الإقبال على الحوار بهذه الروح بل يشجع على الإقبال على الحوار بالانطلاق من التسليم الجدلي بأن الخصم قد يكون هو على حق. فبعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تأتي الآية في سورة سبأ: ﴿**قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾[٧]. فطرفا الحوار سواء في الهدى والضلال. ثم يضيف على

---

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠

(٤) سورة الجاثية، الآيات: ٧ ـ ٨ ـ ٩

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥

(٦) سورة لقمان، الآيتان: ٦ ـ ٧

(٧) سورة سبأ، الآية: ٢٤

الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار: ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾[٨] فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، لكي يقرر في النهاية أن الحكم لله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح (أي يحكم) بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾[٩].

أما عدة الحوار فهي العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان. فما أكثر ما يرد في القرآن: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١٠] ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾[١١] ولا فائدة من محاورة الجاهل المحاور بغير علم: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[١٢] ومثلها في سورة الحج[١٣] وفي﴿آل عمران﴾: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فَلِمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾[١٤].

وكثيراً ما ترد في القرآن كلمة «سلطان» في معرض الحديث على الجدال، واعتبار «السلطان» شرطاً للحوار لا يستقيم بغيره. ويستوقفك الأمر لما لهذه الكلمة من معنى شائع هو معنى القوة والتحكم المادي، ثم تأخذك الدهشة الكبرى ويستبد بك الإعجاب العظيم عندما تكتشف جانباً من جوانب عبقرية اللغة العربية في معنى هذه الكلمة إذ تقف في المعاجم على أن معنى «سلطان» في الأصل هو الحجة والبرهان المستمدان من العقل والعلم فـ ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾[١٥] ﴿أم لكم سلطان مبين﴾[١٦] أي حجة ظاهره مقبولة و ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان﴾[١٧] أي بعلم وتكنولوجيا إذا صح التعبير. ولذلك يتقرر في القرآن مبدأ تغليب السلطان على سلطان القوة، أي قوة الحجة على حجة القوة، السلطة والسلطان

---

(٨) سورة سبأ، الآية: ٢٥

(٩) سورة سبأ، الآية: ٢٦

(١٠) انظر سورة البقرة، الآية: ١١١ والأنبياء، الآية: ٢٤ والنمل، الآية: ٦٤ والقصص، الآية: ٧٥

(١١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٧

(١٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠

(١٣) سورة الحج، الآية: ٨

(١٤) سورة آل عمران، ٦٦

(١٥) سورة غافر، الآية: ٥٦

(١٦) سورة الصافات، الآية: ١٥٦

(١٧) سورة الرحمن، الآية: ٣٣

بمعناهما المادي لا ينبثقان إلا من مقدرة العقل المتجلية في تغلب الحجة وتفوق المنطق وانتصار الإدراك.

وكذلك اللين والحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والكلمة الطيبة هي في القرآن من عدة الحوار السليم. فلموسى قال الله: ﴿**اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾[١٨] وللرسول العظيم قال: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[١٩] ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾[٢٠]. وتأديب الله لرسوله الكريم إذ أعرض عن الأعمى وعبس في وجهه وقد جاء ليسأله بعض الأسئلة قبل إيمانه هو أروع مثل يضرب في هذا الباب.

وللحوار أيضاً آدابه إلى جانب أصوله وعدته. وقمة هذه الآداب عدم الضيق بالحوار، ووجوب الصبر على القول المخالف، والاعراض عن اللغو فما أكثر ما يوصي الله رسوله وخصوصاً في السور المكية أي في بداية الدعوة بقوله: ﴿**واصبر على ما يقولون**﴾[٢١] ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾[٢٢] ﴿**ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون**﴾[٢٣] ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون**﴾[٢٤] ثم إذا استنفدت كل سبل الحوار ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾[٢٥] ﴿**فتوكل على الله إنك على الحق المبين. إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم**﴾[٢٦] ﴿**فاصبر إن وعد الله حق ولا**

---

(١٨) سورة طه، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤

(١٩) سورة النحل، الآية: ١٢٥

(٢٠) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥

(٢١) سورة طه، الآية: ١٣٠ وسورة ص، الآية: ١٧ وسورة ق، الآية: ٣٩ وسورة المزمل، الآية: ١٠ وسواها من الآيات التي تدعو إلى الصبر في سور متعددة.

(٢٢) سورة الكهف، الآية: ٦

(٢٣) سورة النمل، الآية: ٧٠

(٢٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤ ـ ٢١٦

(٢٥) سورة فاطر، الآية: ٨

(٢٦) سورة النمل، الآيات: ٧٩ ـ ٨١ ومثلها في سورة الروم، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣

يستخفنك الذين لا يوقنون﴾[٢٧]

ومهما طال الحوار فخاتمته ان تبين أنه حوار طرشان، لا تكون إلا مجرد ترك الموضوع حيث هو والاعراض عن اللغو وعن الجاهلين: **﴿ولقد وصلنا لهم القول ـ أي جعلناه موصولاً من غير انقطاع لعلهم يتذكرون﴾** . . . فالذين آمنوا **﴿يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾**[٢٨]

الحقيقة التاسعة: هي أن ممارسة الاختيار الحر لا يجوز ان تعلق على شروط الانتفاع المادي أو حساب الربح والخسارة أو على الخوف من الإرهاب. فالخضوع للمادة عبودية تعطل الحرية. وحين يقع الاقتناع برأي لا يجوز أن يحول دون اعتناقه حائل أو ذريعة من ارتزاق أو استضعاف: **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا. .﴾**[٢٩] فهم قد سلموا بأن ما يدعوهم إليه الرسول هو الهدى ولكنهم يخشون فقدان امتيازهم في الأمن والرزق، مع أن الإسلام كرّس امتياز الحرم الذي يعيشون في كنفه وخيراته: **﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا. . .﴾** كما في سورة القصص[٣٠] وفي سورة العنكبوت: **﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾**[٣١]

وكما أن الحرية حق لك، فإن من حقها عليك أن تصونها وصيانتها لسواك واجب كما هي صيانتها لنفسك. وإذا أنت لم تصن حريتك وحقك في الحرية، حتى لو اقتضى الأمر هجرة موطنك نفسه مؤقتاً ـ على جليل قدر الوطن في حياة الإنسان ـ إلى موطن آخر لا تضييق فيه على الحريات فإنك ظالم لنفسك ولا عذر لك في أنك مستضعف أو غير ذي طول: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾**[٣٣] وإبراهيم قال حين ضاق به المقام في بلده: **﴿إني مهاجر إلى ربي﴾**[٣٢]

---

(٢٧) سورة الروم، الآية: ٦٠

(٢٨) سورة القصص، الآيات: ٥١ ـ ٥٥

(٢٩) و (٣٠) سورة القصص، الآية: ٥٧

(٣١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧

(٣٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧ ـ ٩٩

(٣٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦

أجل إن الحرية قيمة جديرة بأن ينجو بها الإنسان كي لا يظلم نفسه إن هو استسلم. وقد يغري الإنسان أن يظلم سواه، لكن أي إنسان يرضى أو يسعد بأن يظلم نفسه؟

الحقيقة العاشرة: هي أنه لا يجوز إساءة استعمال الحرية فإن للحرية حدوداً لا يجوز تخطيها. وقد بين القرآن هذه الحدود وشدد عليها في مواضع متعددة.

فالحرية لا تعني ـ كما في كثير من الآيات ـ افتراء الكذب على الله وعلى الناس

والحرية ليست حرية لبس الحق بالباطل أو حرية كتمان الحق، ولا تحريف الكلام عن مواضعه بعد أن يعقله الإنسان.

والحرية لا تعني النجوى بالإثم والعدوان(٣٤).

والحرية لا تعني قول الزور الذي دعا القرآن إلى اجتنابه كاجتناب الرجس من الأوثان(٣٥).

والحرية لا تعني حرية شتم الآخرين: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾**(٣٦)

والحرية لا تعني إساءة الظن بالناس ولا أن يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء(٣٧)

والحرية لا تعني ترويج الشائعات الكاذبة على مثال حديث الإفك(٣٨)

والحرية لا تعني الانفعال بنبأ الفاسق قبل التثبت من صحته(٣٩)

وإنما قول الحق هو شرط الحرية. إنه الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان(٤٠)

تلك هي أمانة القول السديد الذي به تصلح الأعمال وتغفر الذنوب: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾**(٤١)

الحقيقة الحادية عشرة: هي أن حق الحرية للإنسان ليس من غير ما ثمن باهظ. وكل إختبار حر لا يمكن أن يثبت لصاحبه من غير إختبار عظيم. إنه ما يمكن أن ندعوه باللغة الأجنبية TEST

---

(٣٤) سورة المجادلة، الآية: ٩
(٣٥) سورة الحج، الآية: ٣٠
(٣٦) سورة الانعام، الآية: ١٠٨
(٣٧) سورة الحجرات، الآيتان: ١١ ـ ١٢
(٣٨) سورة النور، الآيات: ١١ ـ ٢٠
(٣٩) سورة الحجرات، الآية: ٦
(٤٠) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢
(٤١) سورة الأحزاب، الآيات: ٧٠ ـ ٧١

الحرية. وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالفتنة أو البلاء، أي محاولة صرف الإنسان أو تحويله عن دينه أو معتقده أو فكره أو رأيه بالترغيب أو الترهيب أو الخداع أو المهالأة.

والفتنة والبلاء نوعان: إلهي وبشري.

فأما الأول فهو امتحان للإنسان في تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والخطأ من الصواب، مع ترك الحرية له في الخيار وفق ما يرتئيه وتحمل مسؤولية الموقف الذي ينتقيه. **﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**(٤٢). **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾**(٤٣).

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾(٤٤).

أما فتنة البشر فأخطر ما فيها ليست الوسائل اللاديمقراطية أو الأساليب غير الشريفة التي تستخدم في صرف الإنسان عن معتقده وفكره، وإنما ما تنطوي عليه هذه المحاولة في أعماقها من إنكار شديد لحق الإنسان في حرية الاختيار. وصمود أصحاب الرأي لمختلف ألوان العنف والقمع والاضطهاد، ومنهم من قضى نحبه من شدة التعذيب، إنما هو انتصار لا لحريتهم هم فحسب، بل للحرية بوجه عام. والذين لا يتورعون عن إخضاع أصحاب الرأي بهذه الطرق لمثل هذه الفتنة أو لمثل هذا الامتحان توعدهم الله بالجزاء الأقصى إن هم أمعنوا فيها ولم يرتدعوا، كما في قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج: **﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد... إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾**(٤٥).

والرسول نفسه تعرض للفتنة: **﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾**(٤٦).

فالفتنة هي قدر المؤمن. وما من سلاح له في وجهها إلا الصبر والثبات على الإيمان والتضحية حتى الاستشهاد تشبثاً بحرية الاختيار: **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.**

---

(٤٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥

(٤٣) سورة الكهف، الآيتان: ٦ ـ ٧

(٤٤) سورة محمد، الآية: ٣١

(٤٥) سورة البروج، الآيات: ٤ ـ ١٠

(٤٦) سورة الإسراء، الآيات: ٧٣ ـ ٧٦

ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾(٤٨). **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم. أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين. وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾**(٤٧).

إن أصحاب الرأي الحر موعودون دائماً بالفتنة والبلاء: **﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**(٤٩).

الحقيقة الثانية عشرة: هي أن حق الحرية على الإنسان أن يدافع عنها بكل الوسائل حتى القتال.

على أن القرآن لم يشرع القتال دفاعاً عن الحرية إلا في المرحلة الأخيرة من الدعوة، مؤثراً تعليم أتباعه اعتماد كل الوسائل السلمية تجنباً للعنف حتى ولو كان اللجوء إلى العنف المادي اضطراراً لغاية الدفاع. وقد كان القتال ممنوعاً على المسلمين حتى أنزلت آية الاذن به في سورة «الحج» المدنية. بل إن القرآن كان يحض المسلمين على أن يبروا خصومهم إن هم لم يعتدوا عليهم أو يقاتلوهم في دينهم: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**(٥٠). وهاتان الآيتان هما من سورة «الممتحنة» التي هي من أواخر السور المدنية ـ الحادية عشرة بعد المائة ـ أي السورة الرابعة قبل الأخيرة مما نزل من سور القرآن الكريم. والحديث فيها إنما يدور على مجرد موضوع طبيعة العلاقة مع الذين يسالمون اتباع الرسالة الجديدة أو يؤذونهم بمقاتلتهم أو بإخراجهم من ديارهم أو المظاهرة على إخراجهم. وهو تعليم للمسلمين وجهه القرآن إليهم حتى بعد آية الاذن بالقتال في سورة الحج التي هي السورة ٨٨ حسب تسلسل النزول.

وحري بنا أن نتدبر آية الاذن بالقتال هذه نستجلي معاً معانيها العميقة: إنها تقول: **﴿أذن ـ أي في القتال ـ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من**

---

(٤٧) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ ـ ٣

(٤٨) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٠ ـ ١١

(٤٩) سورة البقرة، الآية: ١٨٦

(٥٠) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ ـ ٩

ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. . .﴾(٥١).

فلنلاحظ معاً معنى الاذن في الكلمة الأولى من الآية، مما يفيد قطعاً أن قتال الذين كانوا يقاتلون المسلمين ويظلمونهم بإخراجهم من ديارهم بغير حق، كان ممنوعاً قبل ذلك. ولكم كان الأمر يقتضي درجة عالية من ضبط النفس. ثم أن الأمر بالقتال صدر للذين يقاتلون، باعتبار أن خصومهم ينكرون عليهم بالعنف والقوة حقهم في الاختيار الحر. والقتال بعد إنما شرع لهؤلاء لأنهم مظلومون بإنكار حق الحرية عليهم. وهذا المعنى ظاهر في وصفهم في تكملة الآية، بأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق لأنهم اختاروا الإيمان بالله.

ولكم تحمل المسلمون من ضروب الأذى والاضطهاد بسبب ممارستهم حق الاختيار. ألم يحاصروا في شعب مكة؟ ألم تمنع عنهم المياه وتحظر عليهم الأطعمة وتفرض عليهم المقاطعة الكاملة؟ ألم يستشهد منهم من استشهد تعذيباً وقتلاً؟ ولقد جاءت سورة التوبة وهي السورة قبل الأخيرة من سور القرآن تبلغ المشركين في الحج دواعي عدم التعايش مع الشرك، إذ كيف يحج عبدة الأصنام ومحطمو الأصنام إلى بيت واحد؟ كما جاءت تبين أسباب قتال المشركين، **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين. كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون. . . لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون﴾**(٥٢). . . **﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة. أتخشونهم، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾**(٥٣).

وعلى الرغم من أن في هذا البلاغ براءة من المشركين (ولذلك دعيت سورة التوبة سورة براءة لاستهلال أولى آياتها بهذه الكلمة)، فإن الأمر الإلهي هو الاستقامة لهم وهم المشركون ماداموا مستقيمين في تعاملهم مع المسلمين بل إن الأمر الإلهي ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى إجارة المشرك إن هو استجار بالمسلم بل واجب المسلم أن يبلغ المشرك مأمنه إن هو استجار به. وأين نحن اليوم، في ما نشهد من أعمال خطف الأشخاص واحتجاز حرياتهم من هذا التعليم الإلهي العالي: **﴿وإن**

---

(٥١) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠

(٥٢) سورة التوبة، الآيتان: ٧ ـ ٨ والآية: ١٠

(٥٣) سورة التوبة، الآية: ١٣

أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه. ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾(٥٤).

أيها السيدات والسادة. يبقى في نهاية هذا الحديث تعليق على قول الله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾(٥٥). فكيف يتفق ذلك مع مبدأ الحرية؟ وما هو تعليل موضوع الطاعة لأمر الله وأمر الرسول من غير أن يكون تناقض مع الحق في الاختيار الحر؟

وتفنيد ما قد يبدو في هذا من إشكال واضحٌ في رأينا، وهو يعتمد المنطق الأرسطوطاليسي نفسه الذي يجعل المواقف الجزئية أو المواقف من الجزئيات منبثقة أو تستتبعها المواقف الكلية أو المواقف من الكليات. فحين يؤمن الإنسان بالله وبرسالة محمد وبما أنزل إليه، إيماناً حراً نابعاً من اختيار واع لا ضغط فيه ولا إكراه، يصبح من الطبيعي أن يتقبل كل أمر يقضي به الله ورسوله وأن يكون هذا التقبل بالتالي طوعياً وان ارتدى طابع الطاعة المطلقة أو بدا أنه لم يكن لصاحبه فيه خيار في الظاهر. وهذا ما قصد إليه الصديق أبو بكر حين قصوا عليه ما رواه لهم النبي (ص) من أمر الإسراء والمعراج فقال: «لقد صدقته في ما هو أعظم. صدقته بخبر السماء». ومع ذلك فقد كان لبعض الصحابة وخصوصاً لسيدنا عمر بن الخطاب آراء في بعض ما شرّع الله من أحكام تمنّوا على ربهم ـ مع كامل طاعتهم له ـ أن يخفف عنهم فيها، فلم يضن عليهم جل جلاله بالرحمة والاستجابة.

ويبقى بعد ذلك الموضوع الفلسفي الكبير، موضوع التسيير والتخيير. فهل الإنسان في ما يفكر وفي ما يعمل مسير أم مخير؟ وهو مبحث من أخطر مباحث علم الكلام، ولا يتسع المجال الآن للخوض فيه بتفصيل ودقة. حسبنا أن يكون في ما استعرضنا من نصوص الكتاب الكريم ما نرجو أن يرتفع به لواء الحرية في عالمنا الإسلامي بعد طول تنكيس. وهل من نهضة حقيقية لهذا العالم من غير إنسان حر حق الحرية، مهتد في شأنها بأنوار القرآن العظيم؟

﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٥٦).

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٥٧).

---

(٥٤) سورة التوبة، الآية: ٦

(٥٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦

(٥٦) سورة الرعد، الآية: ١١

(٥٧) سورة محمد، الآية: ٢٤